

ما أحوجنا إلى قراءة محيي الدين ابن عربي..

د. محمد صابر عرب

قد يتفق البعض أو يختلف حول بعض آراء وأفكار ابن عربي لكن سيظل فكر هذا العالم، الفيلسوف، الصوفي الكبير بمثابة مشروع ثقافي وفكري ربما لقرون قادمة مجالا خصبا ومثيرا، بل ومحيرا للمشتغلين في حقل الدراسات الفلسفية والتاريخية والدينية، بل وسيبقى بمثابة أحد الجسور الحضارية التي ربطت الشرق بالغرب خلال فترة قلقة اتسمت بالصراع والتوتر في العلاقات ابتداء من سبه جزيرة أيبيريا غربا وحتى مصر وبلاد الشام شرقا.

والمدهش أن العديد من الجامعات المؤسسات الأكاديمية الرصينة في أوروبا ما تزال معنية بفكر هذا الفيلسوف العربي الكبير، لدرجة أن جمعيات تحمل اسم ابن عربي قد أقيمت في العديد من الدول الأوروبية بهدف دراسة وتحقيق وشيوع ثقافة هذا المفكر الكبير.

فالرجل رغم أن أعماله قد عرفت في كافة المؤسسات العلمية شرقا وغربا، منذ فترة مبكرة من عصر الطباعة، لكنه ظل متفردا في عمق أفكاره

عصيا على القراءة إلا للنخبة المتخصصة وكأنه كان يستهدف هذه الجماعة، وهي قضية تستوجب الإشارة إليها، حتى لا يفهم الرجل خطأ، كما أن أفكاره لا تُقرأ إلا في سياقها الفني والتاريخي، فقد عاش في نهايات القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين، حيث الصراع بين الشرق والغرب، فقد كانت الأندلس تشهد بدايات هذا الصراع.

وحيثما جاء إلى الشرق كانت الحروب الصليبية قد بدأت في الأناضول والشام ومصر وعاصر الرجل معركة حطين ١١٨٧م. لقد شاهد بعيني رأسه هول المعارك لأسباب بدت في ظاهرها دينية، بينما هي في حقيقتها سياسية اقتصادية، وتابع معارك الفقهاء التي أججت الصراع بينما يقتل البشر هنا وهناك.. لقد شاهد ابن عربي كل ذلك، لذا راح يستهدف مصلحة الإنسان، لعل ذلك يفسر مذهبه الإنساني القائم على المحبة والتسامح والعيش المشترك والذي أسماه بالإخاء البشري، أو الحب الإنساني الشامل، مؤكداً على أهمية الإنسان باعتباره القيمة العليا والغاية النبيلة في هذا العالم.

لقد أخذ على عاتقه نشر المحبة بين كل أصحاب الديانات، لأنها في مقدمة المقاصد التي عنيت بها كل الشرائع السماوية وجعلها واحدة من أهم الركائز التي شكلت فكره.

لعل هذه المعاني كلها هي التي جعلت من أعمال هذا المفكر العربي الكبير مجالاً خصباً للدراسة مستلهما كل المبادئ التي عظمت من دور الإنسان وقيمته لأنه هو الذي يعمر الأرض ويشيد الحضارة.

لقد راح هذا العالم الكبير يخلق في عالم الفكر والتأمل مستهدفاً إستنفار العقل بحثاً عن الحقيقة قارئاً ومفكراً متأملاً بينما كانت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها تعيش في غياهب التخلف، فالطب هرطقة والفلسفة مروق والمعرفة إشراك، بينما النظم الإقطاعية والحروب المذهبية تسحق البشر وتذل آدميتهم.

لعلنا ونحن نستلهم قيم ومبادئ ابن عربي نشعر وكأنها تستهدف وإقينا في ظل عالم يمضي نحو تدمير ما أنجزه البشر من حضارة. ومما يستلفت النظر حينما رفض أن يبيت ولو لليلة واحدة مصاباً بما أسماه مرض الكراهية، حتى ولو كانت لألد خصومه والمطالبين بدمه.

لقد كانت مصر أحد المحطات التي اعتزم الرجل أن تهدأ رُوحه فيها، لكن فقهاءها لم يستوعبوا فكر الرجل ولم يفهموا قضيته وراحوا يستعدون عليه الحاكم، لذا فضل الرحيل إلى مكة، ومنها إلى بغداد؛ التي لم يمكث فيها إلا أياماً معدودات ثم قصد دمشق (١٢٣٢م)، التي رآها أجمل مدن الدنيا ولم يغادرها حتى وفاته (١٢٤٠م).

لقد تلقى العالم كله فكر ابن عربي دراسة وتحقيقًا من الهند وتركيا وفارس شرقًا حتى أوروبا والأمريكيتين غربًا. لعل الجمعيات والمؤسسات العلمية في العالم -المعنية بتراث الرجل- قد رأت فيه ما ينقذ العالم من الدمار والقتال في إطار مشروع فكري يجعل من الأخوة البشرية أساسًا للتعاون نحو إعمار الأرض وبناء الحضارة.

ما أوجنا إلى أن نستلهم كل قيم المحبة والتعاون والتسامح وكل ما من شأنه تعظيم المثل العليا، التي تبدو واضحة سواء فيما كتبه ابن عربي في مجمل كتاباته، وخصوصًا كتابيه: "الفتوحات المكية"، و"فصوص الحكمة"، إلى جانب ما نظمه ابن الفارض وما كتبه الغزالي وجميعها بمثابة ينبوع الدافق لفكر أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا الإنسان إنسانًا.

لعل المتابع لفكر عصر النهضة الإيطالية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر يلحظ تأثيرًا واضحًا لابن عربي وخصوصًا فيما يتعلق بالصراع بين الخير والشر، وقد بدا ذلك بشكل واضح فيما كتبه "دانتي" الذي استلهم في منظومته الشهيرة: «الكوميديا الإلهية» أفكارًا كثيرة من الشيخ، وخصوصًا فيما يتعلق بالخيال الشعري لرحلة مليئة بالأسرار والمعاني الرمزية والقياسات

الفنية والهندسية لما أسماه "دانتي": «الجحيم» و«الفردوس» في إطار من  
الدراما والتصوير المجسم لحياة الأبرار مقابل حياة الأشرار.  
سيبقى ابن عربي حقلًا خصبًا للدراسات العلمية الرصينة، وستبقى أفكاره  
ونظرياته مشروعًا متكاملًا لعالم أكثر جمالًا وتسامحًا وتعاونًا.

د. محمد صابر عرب  
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق  
القومية المصرية

Email: [chairman@darelkotob.gov.eg](mailto:chairman@darelkotob.gov.eg)